# ابو العلاء المعري

## المتشائمون

### التفاؤل والأثرية في كلام الشيخ

## ١

كان النبي محمد ، وكان هذا القرآن ، هذا الكتاب المعجز ، فكانت تلك الدنيا العجيبة العربية ، وكان مع الهدى والخير ذلك العلم وذلك الأدب وتلك الفنون ، وكان أولئك الأئمة وأولئك النابغون وأولئك العبقريون ، وكانت تلك المؤلفات الفائقات المحققات ، وكان أولئك المؤلفون الراسخون في العلم المستبحرون . وكان هذا العبقري أبو العلاء المعري ( أحمد بن عبد الله ابن سليمان ) رب هذا المهرجان . كانت الحضارة العربية وكانت هذه المدنية الغربية ولن يقدر أن يكفر إفضال المفضلين كافرون . فمحمد والقرآن هما شائدا هذا المجد ، وهما القائدان ، وهما الهاديان ، وهما الشمسان الباهرتان ذواتا الضياء السرمدي في العالمين [ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا ، ويزكيكم ، ويعلمكم الكتابَ والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون — فاذكروني أذكركم واشكروا لي ، ولا تكفرون ] . [ سورة البقرة آ ١٥١ ]

* * *

« دمشق عروس الشام الموموقة ، وواسطة عقدها المرموقة »

في دمشق هذه التي قلت فيها — يا أبا العلاء — قولك هذا في رسالتك الى ( أبي منصور محمد ) قد مهرج العربيون لك اليوم هذا المهرجان بعد الف سنة من سعادتك بكونك وسعادة العربية بك . وإن أمة أقامت من بعدك هذا الدهر الأطول تصارع الكروب والخطوب ، وتقارع تلك الهمجيات الشرقية

والوحشيات الغربية ثم لم تبد بل لم تهن ولم تستكن ، إن أمة وقاها كتابها ووقت لغتها ولسان كتابها ، وعرفت قدرها في الأقدار ، وفضلها من قبل ، ومسعاها اليوم ، وأرادت ألاّ تزول وأن تكون فكانت ، أنّ هذه الأمة لقوية وعزيزة وسائدة وخالدة في الخالدين .

* * *

بلاد الشام جلها ، ولا أقول كلها ، و « أن مع اليوم غداً يامسعدة [١] » لاتردد كثيراً في هذا الوقت قول الشيخ :

ألفنا بلاد الشام إلف ولادة نلاقي بها سود الخطوب وحمرها
فطوراً نداري من سبيعة ليثها وحيناً نصادي من ربيعة نمرها

فالحال اليوم ـ ياأبا العلاء ـ متهادن، والدهر مهادن ، وفي الدار من قبيلك صالحون وصادقون ومخلصون و « ما الخلاص إلا في الاخلاص [٢] » كما يقول أبو منصور الثعالبي ورئيس القوم [٣] ملآن من الفضائل الاسلامية ومن العربية والوطنية ، وهو كما أحببت وكما أردت وكما قلت :

اذا ماتبينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم .

---

لايتركن قليل الخير يفعله من نال في الأرض تأييداً وتمكينا .

وقد أتى بكثير الخير وأكثره ، ومهرجانك هذا هو حسنة من حسناته .

* * *

كونت العربية في اللغات تكوين الألماس [٤] والراديوم في المعدنيات .

[ صنع الله الذي أتقن كل شيء ]

ولله أن يفضل لساناً على لسان ، وأن يحظي انساناً على انسان [٥]

[ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ]

---

(١) من امثالهم

(٢) في كتابه ( المبهج ) ورواه في كتابه ( الايجاز والاعجاز ) .

(٣) صاحب الفخامة السيد شكري القوتلي رئيس الجمهورية السورية .

(٤) هو الألماس والهمزة واللام فيه اصليتان ، ولم يصب المجد في قوله : « ولا تقل الماس فانه من لحن العامة » وقد وجدت ( الألماس ) في الفائق ج ١ ص ٣٣٦ وفي النهاية لابن الاثير .

(٥) أحظيت فلاناً على فلان من الحظوة والتفضيل ( المخصص ) .

والشيخ يقول في ( الفصول والغايات ) : « وربك خص بالفضيلة من اختار » واذا قال العبقري ابن جني : « انني اذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقة والإرهاف والرقة مايملك على جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غلوة السحر » فما غالى بما قال ولا بالغ بل كان من المقتصدين وهذا شيخ العربانيين العلامة الكبير ( نلينو ) الذي حذق لغات متقدمين ومتأخرين من الغربيين والشرقيين يعالن في خطبة غير متسمح في الكلام ولا مصاد بأن « العربية تفوق سائر اللغات رونقاً وغنى ، ويعجز اللسان عن وصف محاسنها » و « لغة العرب » أفصح اللغات وبلاغتها أتم البلاغات (١) » ولو تمثلت لغة غادة لأنشد المنشدون :

فدقت وجلت واسبكرت وأكملت فلو جن انسان من الحسن جنت (٢) .

* * *

فتنت هذه العربية ( أبا العلاء ) فتوناً وسحرته فنونها ، فأقبل رجلاً مسحوراً . شغف بكتابها ( قرآنها ) ذاك الشغف ، وكلف بقريضها أي كلف ، وهام بألفاظها هيامه بأقوالها .

« ان هذا الكتاب الذي جاء به محمد كتاب بهر بالاعجاز . . . ماحذي على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال . . . جاء كالشمس اللائحة . . . لو فهمه الهضب الراكد لتصدع (٣) [ وتلك الأمثالُ نضربها للناس لعلهم يتفكرون ] وإن الآية منه أو بعض الآية ليعترض في أفصح كلام يقدر عليه المخلوقون فيكون فيه كالشهاب المتلألئ في جنح غسق [ فتبارك الله احسن الخالقين ] (٤) » .

« أجدني ركيكاً في الدين ركاكة أشعار المولدين (٥) »

ومن علق بأقوال العرب الأقدمين من الجاهليين أو المخضرمين أو الاسلاميين استنزل كلام المحدثين ، وقضى قضاء أبي العلاء . وللكلام العربي القديم سلطان قاهر

(١) الزمخشري .

(٢) الشنفرى الازدي في مفضليته ( اسبكرت ) طالت وامتدت ، والمعنى ـ كما يقول الانباري شارح المفضليات ـ : دقت في حسنها ، وجلت في خلقها .

(٣) الكتاب يقول : لو انزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله . . .

(٤) أبو العلاء في ( رسالة الغفران ) .

(٥) أبو العلاء في ( الفصول والغايات ) .

اذا استمكن من نفس خليطه سحره عما سواه [١] ، فلا يتقبل الا إياه . ولولا أن عبقرية أبي تمام وعبقرية المتنبي جهرتا الشيخ وبهرتاه ماكان فخم حبيباً في ( رسالة الغفران ) ذاك التفخيم مشيراً الى مقصداته فاتقات ثم قال : « إني لأضن بتلك الأوصال أن يظل جسدها وهو بالموقدة صال ، لأنه كان صاحب طريقة مبتدعة ، ومعان كاللؤلؤ متتبعة ، يستخرجها من غامض بحار ، ويفض عنها المستغلق من المحار [٢] وما كان افتتن بأبي الطيب تلك الفتنة . وسبك حبيب ـ وان كان محدثا ـ عجيب . ولغته قد ضارعت أو قاربت في القوة قديمة مطبوعة .

* * *

ذكر صاحب ( الغيث المسجم في شرح لامية العجم ) جماعة من « الذين رزقوا السعادة في أشياء لم يأت بعدهم من نالها » فلما جاء الى الشيخ قال : « أبو العلاء المعري في الاطلاع على اللغة » .

يقول الأمام الشافعي في ( رسالته في أصول الفقه ) :

« لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً ، واكثرها الفاظاً ، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه انسان غير نبي » . ولو أحاط انسان غير نبي بجميع هذا العلم لكان الشيخ أبا العلاء ، وان لم يحط به كله فقد أحاط ـ كما يخال ـ بجله وتلميذه أبو زكريا التبريزي يقول كما ذكر ابن العديم في كتابه ( الأنصاف والتحري ) : « ماأعرف أن العرب نطقت بكلمة لم يعرفها المعري » .

* * *

عبقرية عربية نثرت فبهرت ، ونظمت فعجبت ، وفكرت فحيرت ، وأبدعت وتفننت إذ قالت وألفت فأدهشت . وعلمها في كل فن من فنون اللغة في وقتها علم إحاطة [٣] علم الحفي [٤] المحيط لا العالم النتفة [٥] . واذا لم نر ( الايك والغصون)

---

(١) سحره عن الشيء : صرفه عنه .

(٢) المحار جمع المحارة : الصدفة .

(٣) علمه علم احاطة اذا علمه من جميع وجوهه لم يفته منه شيء

(٤) الحفي : الذي يتعلم الشيء باستقصاء

(٥) النتفة : الذي يلتقط من العلم شيئاً ولا يستقصيه . وكان أبو عبيدة يقول فى الاصمعى ذاك رجل نتفة .

— وهو نحو من مئة جزء — وغير الايك والغصون ، ومؤلفات الشيخ كثير(١) فقد رأينا المطبوعات المعروفات ، واستدللنا بما حضر على ماغاب ، ولم نستبعد ماروى ابن القارح في رسالته : « الشيخ بالنحو أعلم من سيبويه وباللغة والعروض من الخليل » ووجدنا ابن القارح هذا من المقتصدين حين يقول : « ... لقد سمعت من رسائله عقائل لفظ ، ان نعتها فقد عبتها ، وإن وصفتها فما أنصفتها . وأطربتني ( يشهد الله ) إطراب السماع . وبالله لو صدرت عن صدر من خزانته وكتبه حوله يقلب طرفه في هذا ، ويرجع الى هذا ... لكان عجيباً صَعباً شديداً . ووالله لقد رأيت علماء ، منهم ابن خالويه اذا قرئت عليهم الكتب ولا سيما الكبار رجعوا الى أصولهم كالمقابلين . يتحفظون من سهو وتصحيف وغلط . والعجب العجيب والنادر الغريب حفظه لأسماء الرجال (٢) ، والمنثور كحفظ غيره من الاذكياء المبرزين المنظوم . وهذا سهل بالقول ، صعب بالفعل ، من سمعه طمع فيه ؛ ومن رامه امتنعت عليه معانيه ومبانيه . »

واني لأقول : انه لمن النادر الغريب أن يحتاز الأديب عبقرية نثرية ، وعبقرية شعرية كما احتاز هذا الشيخ وإذا كانت الاجادة لاتتفق في فني المنظوم والمنثور معاً الا للأقل — كما قال ابن خلدون — فكيف حال العبقرية ؟ وهذان الشاعران العبقريان أبو تمام والمتنبي لم ترو لنا كتب الادب والسير من نثرهما إلا رسالة قصيرة للاول سطرها البديعي في ( هبة الأيام ) ورسالة أقصر منها للثاني أوردها ابن خلكان في ( وفيات الأعيان ) وأما البحتري المسكين فكان لا يستطيع أن يخط في النثر سطراً ، واذا خاطب احداً في شأنه وجه اليه شعراً . قال الشيخ في احدى رسائله : « روي ان البحتري كان لايقدر على كتب رقعة ، فيجعل المنظوم عوضاً عن المنثور » .

وأليةٌ محلوفة بالقرآن وإعجازه لو أن هؤلاء الشعراء الثلاثة ، وهم عند ابن الأثير وغير ابن الأثير أشعر العرب « هؤلاء لات الشعر وعزاه ومناته الذين ظهرت على ايديهم حسناته ومستحسناته » مشوا في عرض ( العروض )

(١) قالوا : انها مئتا مجلد .

(٢) رسالة ابي العلاء الى ابي القاسم بن سبيكة يعزيه بأخيه ـ تؤيد قول ابن القارح .

المتشعبة ومناحي ( النحو ) المتفرقة المتصعبة كما مشى الشيخ ، ونقبوا مثلما نقب واستظهروا من مقالات الفلاسفة والمتكلمين ومصنفات الفقهاء وأهل النحل بعض ما استظهر — لأجبلوا اجبالاً (١) أو غث كلامهم وجاؤا في القريض قرازيم(٢) . لكن عبقرية الشيخ قوية جنية قد تسيطرت على كل فن ، ولم يسيطر عليها فن ، ولم ينزل نظيمها ونثيرهـا من عليائها في وقت ، ولم تتبدل لها ديباجة أو بهجـة

* * *

اذا قال ابو الطيب :

مابه قتل اعاديه ولكن يتقي اخلاف ما ترجو الذئاب

فنطّ وشطّ وبدت ( فاعلن ) في العروض ( فاعلاتن ) في حين أن المتنبي — كما قال الشيخ — : « كان شديد التفقد لما ينطق به من الكلام . يغير الكلمة بعد أن تروى عنه . ويفر من الضرورة وان جذبه اليها الوزن (٣) » . واذا قال ( الوليد ) البحتري :

وكأن الأيام أوثر بالحسن عليها يوم المهرجان الكبير (٤)

فكسر وجاء نقص من الزيادة . واذا قال حبيب بن أوس :

بالقائم الثامن المستخلف اتطأدت قواعد الملك ممتداً لها الطول (٥)

---

(١) أجبل الشاعر : أقحم .

(٢) القرازم . الشاعر الدون ، وهو يقرزم شعره يجيء به رديئاً .

(٣) رسالة أبي العلاء الى ابي الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري .

(٤) يراجع ( الموشح ) للمرزباني ، وذكر الشيخ في رسالة الى النكتي أن البحتري كسر في قوله :

ولماذا تتبع النفس منه شيئا جعل الله الفردوس منه جزاء

( قلت ) : رواية البيت في ديوانه المطبوع في بيروت هي :

ولماذا تتبع النفس منه شيئاً يجعل الله الفردوس منه بواء

(٥) يراجع ( المثل السائر ) : النوع الأول معرفة علم العربية من النحو والتصريف .
( قلت ) في الديوان المطبوع في بيروت : ( اعتدلت ) مكان ( اتطأدت ) واليقين ان ناسخاً قديماً أراد اصلاح الكلمة ولو اطلع حبيب على ما جاء به هذا الوراق أو الناسخ لمج وضج ، وآثر خطأه على هذا الاصلاح وأين كلمة من كلمة ؟...

فتهور [١] البيت في اللغة بـ ( اتطأدت ) ولم يتطد .

اذا جازف في اللغة المجازفون وطفف المطففون « ويل للمطففين » فعندالشيخ الموازين القسط ، عنده القسطاس المستقيم ، وميزان الصيدلاني [٢] الحكيم . « موازين صدقٍ ، كلها غير عائل [٣] » .

نثر أبو العلاء مترسلاً ومسجعاً فبذ النـاثرين في وقته والذين من بعده كلهم أجمعين ، وشعر فتبدى في سماء القريض شمساً علائية لاتأفل ما كان القرآن ، وكان هذا اللسان المبين .

ولقد أصاب الشيخ وأطاب [٤] حين حاش في رسائله ودواوينه وكتبه الكلمات الغريبات ،فجمع نادّات شاردات لم نر كثيراً منهن فيمعجم من المعجمات. وان عربيات قديمات نشأن في ( الجزيرة ) مع أخوات لهن ـ لحريات أن يظهرن وأن يعرفن . وقد برع أبو العلاء اذ نص تلك الغرائب في حلل عدنيات [٥] من العبارات كأنهن عرائس قعدن فوق منصات . ولأن تجتاف لفظة غريبة جملة أو بيتاً خير من توحد [٦] . ولكل لغوي في التصنيف نمط . واذا احسن المعري فقد أجاد ابن سيده ، وأجاد الجوهري وابن دريد .

* * *

لم يكن الشيخ من العبقريين الملهمين بل كان من العبقريين الدارين المدركين ، تعلم واستعلم فعلم ، وسأل واستفهم ففهم . وللقائل الملهم حال ، وللمدارس حال ، ولذاك وحي ، ولهذا مقال ، والوحي لايحصل ، ولا يؤازيه مؤاز.

وقد استهام الشيخ بلغة العرب ، وكان متمناه في دنياه أو مرجاه [٧] الأسمى

---

(١) تهور : انهدم

(٢) الصيدلاني والصيدناني منسوبان الى الصيدل والصيدن وهما أصول الاشياء وجواهرها والنون للمبالغة ( الفائق ) .

(٣) عائل : مائل .

(٤) أطاب : جاء بشيء طيب .

(٥) عليه عدنيات أي ثياب كريمة ، وأصلها النسبة الى عدن ، تقول : مررت بجوار مدنيات عليهن رياط عدنيات ( الاساس )

(٦) وحد الشيء : صار على حدته .

(٧) استعمل اللفظة أبو الطيب المتنبي وقال سمعتها من العرب .

أو مثله الأعلى أن ينبغ فيها وفي علومها فنبغ ، وبلغ حيث بلغ . فهويه [١] هو هذه اللغة ، وفنون زمانه التي شاء عرفانها هن للهوي تبع .

واذا تمادى الشيخ في اعجابه بالعرب الأقدمين ، وتطربه سجع محدثين مسجعين فقلد فقد افتن في تقليده واجتهد ، فعد في الشعراء والكاتبين من المبدعين . وتذرع أبو العلاء بالله وتحاميده وتماجيده فنظم ( اللزوميات ) وصاغ أوحاك ( الفصول والغايات ) والمقاصد لغوية لاألهانية [٢] ، لادينية ، وان اشتملت على أشياء منوعات مهولات [٣] ملونات قد بدت مثل ( صندوق العجب ) . وما كان يغرب حين يغرب حتى يعمي مقالة ولكن ليعلن قدرة وبراعة. وكيف يكفر معنى قصده وقد أصحبه شرح الغريب من ألفاظه .

ومؤلفات الشيخ العبقرية هن بنات القصد والتكلف وبنات الأثرية .

« . . . وقد تكلفت في هذا التأليف ـ يعني اللزوميات ـ ثلاث كلف ، الأولى أن ينتظم حروف المعجم عن آخرها . والثانية أن يجيء رويه بالحركات الثلاث وبالسكون بعد ذلك . والثالثة أنه لزم مع كل روي فيه شيء لايلزم من ياء أو ثاء أو غير ذلك من الحروف » .

ولو لم يجب الشيخ داعي اثريته ، ويحقق قوله في ( لاميته ) ويقصد ويتكلف ما كانت امثال ( اللزوميات، والفصول والغايات ، والأيك والغصون ) مما عرفناه وحرمنا إياه جهل الجاهلين . وضلال الصليبيين وتترية التتر وحوادث الأيام ، وما كانت العربية ازدادت ثروة بباهرات عبقريات تباهت بها ، وباهت غيرها من اللغات ، واذا هجّن في العلم والأدب تكلف الضعفاء العاجزين حين يتكلفون فتكلف العباقرة القادرين يجل عن كل تعييب او تهجين .

* * *

حرث ابو العلاء القرآن حرثاً [٤] عجباً ، وسيط هواه بلحمه ودمه ،

(١) هويه : محبوبه ، معشوقه .

(٢) هذه نسبة الى اسم الله عز وعلا إلا أنه وقع فيها تغيير من تغييرات النسب واقتضاب صيغة ، ونظيرها الرجولية في النسبة الى الرجل والقياس الهية ورجليه ( الفائق ).

(٣) ورد المهول في شعر قديم رواه المخصص وفي أمثال العرب .

(٤) في حديث ابن مسعود : احرثوا هذا القرآن . وفي [ الاساس ] : وحرثت القرآن أطلت دراسته وتدبره .

واستهداه فهداه وذهن او ادرك من الهية ( الكتاب ) وسماويته ومن عربيته الناصعة الصافية ذات الاعجاز ، وبلاغته الخارقة العادة ماادركه الفصحاء البلغاء من العرب في عهد النبي او كاد يدرك ذلك . ولا تستقلن هذه الكبدودة . ومصنف الشيخ ( تضمين الآي ) « وهو إن لم نره فقد سمعنا خبره (١) » يبين أنه بلغ في علم ( الكتاب ) المبالغ ـ كما يقول الزمخشري ـ ولا يضمن مثل ذلك التضمين الفائق البديع الا من خرجه ( القرآن ) هذا التخريج العظيم البليغ . [ ومن يهد الله فهو المهتدي ] .

بصر الكتاب الالهي المحمدي ( أحمد بن عبد الله بن سليمان ) بعجائبه وآياته فاستيقن واستبصر ، وارتوى الشيخ من كوثر البلاغة القرآنية فأزهر الكلام العلائي ونور .

نوّر القرآن قولاً فعلاً وسما صاحبه في القائلين . انما القرآن هدي الناطقين ، انما القرآن نور العالمين . غثّ قول لم يهذبه ( الكتاب ) .

والقرآن ، القرآن ذلكم الكتاب العجيب المبين ؛ إنه يراه نابغة الأوربيين الأديب العبقري العظيم ( جان ولفغنغ غوت ) قد أعطى فيه كل مقام حقه ، وأخذ كل معنى من مقاصده لفظه كما يراه قوياً ، عظيما ، سامياً ، متعالياً ، رائعاً مهيباً قد خرق العادة ، فلا غرو أن يبلغ أثره في العالم — كما قال — حيث بلغ.

ألا إن القرآن في الكلام مثل محمد في الأنام . فان وجدت لمحمد خطيراً (٢) ألفيت للقرآن نظيرا .

[ قل : لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ] .

دعاكم الى خير الأمور محمد ... وليس العوالي في القنا كالسوافل
حداكم على تعظيم من خلق الضحى ... وشهب الدجى من طالعات وآفل

(١) مقتبسة من البديع الهمذاني ولشبل الدولة في الزمخشري :

زمخشري فاضل أنجبه زمخشر
كالبحر إن لم أره فقد أتاني خبره

(٢) خطير الشيء مثله [ المخصص ] وفي اللسان : فلان ليس له خطير أي ليس له نظير ، وهذا خطير لهذا أي مثل له في القدر ، ولا يقال للدون الا للشيء الخري .

وألزمكم ما ليس يعجز حمله أخا الضعف من فرض له ونوافل
وحث على تطهير جسم وملبس وعاقب في قذف النساء الغوافل
وحرم خمراً خلت ألباب شربها من الطيش ألباب النيام الجوافل
فصلى عليه الله ما ذر شارق وما فت مسكاً ذكره في المحافل[1]

* * *

ابو العلاء « هو جوهرة جاءت الى الدنيا وذهبت[2] » .

## ٢

لما شاء الله أن يثب قبيل من نامية[3] الله تلك الوثبة ، أن يطفر تلك الطفرة ، وليست الطفرة على ذي القدرة والحول بمحال ، واعتدلت القامات [ ولقد خلقنا الانسان في أحسن تقويم ] وتحركت الألسنة بعد حين من الدهر طويل بتلك اللهجات البينات ، وكرّم لله اناسيّ كثيراً على سائر المخلوقات بالذي دعته اللغات ( العقل ) وهو نعمة الله الكبرى ، وفضيلة الانسان على غيره العظمى .

[ ولقد كرمنا بني آدم ، وحملناهم في البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ] .

« اللباب أهل الألباب ، ولكل حيوان حس ولكن الله فضل الناطقين[4] ».

لما كان الذي سمته الافرنجيه ( Évolution ) وصرنا الى أفق الانسانية الذي ذكره ابن خلدون ووضحه وفصله النشوئيون تفصيلاً [ وقد خلقكم أطواراً ] ونجم في الأدمغة ذلك ( الفكر ) المضيء ، وهو خير مافي الدنيا بل هو كل مافي

[١] ابو العلاء .

[٢] قال الصفدي في [ نكت الهميان في نكت العميان ] :« حكي لي عن الشيخ كمال الدين ابن الزملكاني انه قال في حقه هو جوهرة الخ » .

[٣] خلقه لأنهم ينمون .

[٤] في ( الامتاع والمؤانسة ) لأبي حيان التوحيدي : فأما أنفس أصناف الحيوان كالفرس والحمار فأنها أنفس ناقصة غير كاملة ، وهي ضعيفة لأنها لم تجد إلا الاحساس والحركات ، ولم يشم فيهـا نور النفس الشريفة ، ولم يلبث فيها شعاع العقل الكريم فوجب من هذا الوجه أن تكون تابعة لأبدانها جارية على فسادها وبطلانها لأن الحكمة انتهت الى ذلك الحد في كونها حشواً لهذا العالم وزينة ومنافع ومبالغ الى غايات وأغراض .

الدنيا — كما يقول العلامة بوانكريه — ومحل العقل ( الدماغ ) كما ذهب الى ذلك أبو حنيفة وأرنست هيكل لا القلب كما ظن الشافعي . واستنبط الحجى معاني للأشياء كانت خافية قبل ذلك ( الارتقاء ) وهشت النفوس وبشت بما ترى العيون ، وأقبل ( الادراك ) وأتى ( الفهم ) فأدرك المحسوس أو المحس ، وفهم المنظور ، والحس البحت والنظر الصرف كما يشعر غير الناطق ويلمح من دون فكر وفهامة هما كلا شيء ، كونهما مثل العدم ، إن الهناءة والسعادة في البصيرة لا البصر .

لما ارتقينا وعقلنا وعلمنا وبنينا وحضرنا وغرسنا وتلونا :

[هوَ أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ] .

[ هو الذي خلق لكم مافي الأرض جميعاً ] .

وقال الشيخ أبو العلاء :

« إن شاء الملك قرب النازح وطواه حتى يطوف الرجل في الليلة الدانية بياض الشفق من حمرة الفجر — طوفه بالكعبة — حول قاف [١] ثم يؤوب الى فراشه والليلة ما همت بالأسحار ، ويسلم بمكة فيسمعه أخوه بالشام ، ويأخذ الجمرة من تهامة [٢] فيوقد بها ناره في يبرين [٣] وقاصية الرمال [٤] » فحققنا قوله ، وطار في الجو أو في السمهى [٥] مثل الطيور الطائرون ، وسمعنا في دمشق سرار القوم بله الطنطنة [٦] في برلين وفي لندن وفي باريس وواشنطن وبله العطعطة [٧] في ميادين القتال. وأورى ( مركوني ) ما أورى وهو في سفينته في بحر الروم فأضاءت ( سدني ) في أقصى الأرض [ ويخلق مالا تعلمون ] .

---

(١) قاف : جبل محيط بالارض . . . وقاف في سلم الذي هو جبل في المدينة : يثرب .

(٢) تهامة : مكة ، وبلاد شمالي الحجاز .

(٣) يبرين : من أصقاع البحرين ، ويبرين قرية من قرى حلب .

(٤) رويت هذه الشذرة في احدى مقالاتي في [ الرسالة ] ٢٥٠ س ٦ في ١٧ صفر ١٣٥٧ ، وعنوان المقالة [المخترعات وكتاب الفصول والغايات ] .

(٥) السمهى : الهواء ، الجو .

(٦) الطنطنة : كثرة الكلام والتصويت به .

[٧] العطعطة : تتابع الأصوات في الحرب وغيرها .

لما قطعنا ماقطعنا ، وبلغنا مابلغنا ، ومشينا اليقدمية [١] وحمدنا وشكرنا و [ الحمد لله رب العالمين ] طلعت علينا أجواق تذم الوجود ، وتهجو الحياة ، وتطري العدم ، وتلعن الدنيا ، وتكنيها بأم دفر وأم درز ، وتصفها بأنها دار قلعة [٢] ، منزل قلعة [٣] ، وتسمي خيراتها حطاماً . وجاء فوج أنكر كونها . ولم يجد لها مثلاً ؛ « قيل لبعضهم : كيف ترى الدنيا ؟ قال : وما الدنيا ؟ لا أعرف لها وجوداً » « وقيل لآخر : مامثل الدنيا ؟ قال : هي أقل من أن يكون لها مثل » وتمادى محمد بن واسع في استحقارها بل جاز المدى « قيل له : فلان زاهد ، قال : وما قدر الدنيا حتى يجهد من يزهد فيها » وأقبل الحجاج بن يوسف متقرئاً متحنثاً [٤] فقال في احدى الخطب : « والله ما أحب أن مامضى من الدنيا بعمامتي هذه . ولما بقي منها أشبه بما مضى من الماء بالماء » وتالله لو أن هذا الكهاكه ـ وكان الحجاج قصيراً أصفر كهاكها [٥] ـ ابدى الى العربية تلك اليد ، وتقرب الى ( الكتاب ) ذاك التقرب الكريم المشتهر ، وولع بالقرآن ولعاً كبيراً حتى قال عمر ابن عبد العزيز :« ماحسدت الحجاج على شيء حسدي اياه على حبه القرآن وإعطائه اهله » لولا كل ذلك لسخطنا واطلنا القول فيه . وبدا ( الوليد ) متحذلقاً متفلسفاً في هذه المقطوعة التي اخرجته من بغداد :

اخيّ ، متى خاصمت نفسك فاحتشد لها ، ومتى حدثت نفسك فاصدق
ارى علل الأشياءشتى ولا ارى التجمع الا علة للتفرق
ارى الدهر غولاً للنفوس وإنما يقي الله في بعض المواطن من يقي
فلا تتبع الماضي سؤالك لم مضى ؟ وعرج على الباقي وسائله لم بقي ؟
ولم ار كالدنيا حليلة صاحب محب متى تحسن بعينيه تطلق

[١] اليقدمية : التقدم بالهمة والأفضال . وفي [ الفائق ] في حديث ابن عباس ان ابن أبي العاص مشى اليقدمية وأن ابن الزبير مشى القهقرى . أي المشية اليقدمية التي يقدم بها الناس أي يتقدمهم وروي بالناء غلطاً .

[٢] قلعة : إقتلاع ، تحول وارتحال .

[٣] منزل قلعة : المنزل الذي لاتملكه والقلعة من المال مالا يدوم .

[٤] [ المتقريّ ] المتنسك [ المتحنث ] المتعبد .

[٥] [ الكهاكه ] هو الذي اذا نظرت إليه كأنه يضحك وليس بضاحك من الكهكهة [ الفائق ]

تراها عياناً ( وهي صنعة واحد ) فتحسبها صنعي لطيف وأخرق [١]

ومن قوله له :

ان الزمان زمان سو وجميع هذا الناس بو .

وأطل علينا أحمد بن الحسين الكندي مجهوراً هذا الكلام [٢] :

إذا كان الشباب السكر والشيـ ـب هماً فالحيـــاة هي الحمام

---

هل الولد المحبوب إلا تعلة وهل خلوة الحسناء إلا أذى البعل
وما تسع الأزمان علمي بأمرها وما تحسن الأيام تكتب ما أملي
وما الدهر أهل أن تؤمل عنده حياة وأن يشتاق فيه إلى النسل

يقول ابن الأثير في كتابه ( الوشي المرقوم في حل المنظوم ) : « كنت سافرت إلى مصر سنة ( ٥٩٦ ) ورأيت الناس مكبين على شعر أبي الطيب المتنبي دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك ، فلم يذكروا لي في هذا شيئاً ، ثم إني فاوضت عبد الرحمن بن علي البيساني في هذا فقال لي : ( ان أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس ) ولقد صدق فيما قال » فهل نطق المتنبي بتلكم الأبيات عن خواطر الاناسين أم لغا بها عن سوانح الشياطين ، انهم الشعراء يفتلتون [٣] [ ألم تر انهم في كل واد يهيمون ] و « الشعر للخلد [٤] مثل الصورة لليد ، يمثل الصانع ما لا حقيقة له ، ويقول الخاطر ما لو طولب به لأنكره [٥] » . « وإذا رُجع

---

(١) في أمالي المرتضى : قيل : ان السبب في خروج البحتري من بغداد هذه الأبيات ، فان بعض أعدائه شنع عليه بأنه ثنوي حيث قال ( صنعي لطيف وأخرق ) وكانت العامة حينئذ غالبة على البلدة ، فخاف على نفسه ، وقال لابنه أبي الغوث : قم يابني حتى نطفئ هذه النائرة بخرجة نلم بها شعثنا ونعود ، فخرج ولم يعد .

(٢) جهور الكلام : فخمه .

(٣) الفلتة الكلام يقع من غير إحكام وقد افتلته وفي الأساس : افتلت الكلام : ارتجل . وكل شيء فعلته فلتة فقد افتلت .

(٤) ( الخلد ) القلب ، النفس .

(٥) أبو العلاء في مقدمة ( سقط الزند ) .

إلى الحقائق فنطق اللسان لاينبئ عن اعتقاد الانسان [١] » .

ودهمنا ابن الشبل البغدادي هتاتاً [٢] جداقاً [٣] يردد هذا الشعر :

صحة المرء للسقام طريق وطريق الفنـاء هذا البقاء
بالذي نغتذي نموت ونحيا أقتل الداء للنفوس الدواء
قبح الله لذة لأذانا نالها الامهـات والآباء
نحن لولا الوجود لم نألم الفقـــد فايجادنا علينـا بلاء
ليت شعري وللبلى كل ذا الخلـــق بمـاذا تميز الأنبياء
موت ذا العالم المفضل بالنطـــق وذا السارح البهيم سواء
لاغوي لفقده تبسم الأر ض ولا للتقي تبكي السماء
انما الناس قادم إثر ماض بدء قوم للآخرين انتهـاء

---

بربك أيها الفلك المدار أقصد ذا المسير أم اضطرار
مدارك قل لنـا في أي شيء ففي أفهامنا منك انبهـار
وعندك ترفع الأرواح أم هل مع الأجساد يدرسها البوار
ودنيا كلمـا وضعت جنيناً غذاه من نوائبهـا ظؤار
هي العشواء ماخبطت هشيم هي العجماء ماجرحت جبار
نعاقب في الظهور وما ولدنا ويذبح في حشا الأم الحوار
وننتظر الرزايا والبلايا وبعد فبالوعيد لنا ائتظار
ونخرج كارهين كما دخلنا خروج الضب أحرجه الوجار
فماذا الامتنان على وجود لغير الموجدين به الخيار ؟
وكانت أنعماً لو أن كوناً نخير قبـله أو نستشار

لقد استأسد ابن الشبل على الحق وبالغ في العفلطة والعسلطة [٤] ، ولقد

---

(١) أبو العلاء في ( رسالة الغفران ) في أثناء حديث عن المتلمي .
(٢) ( هتات ) مهذار كثير الكلام .
(٣) جدف بنعمة الله : كفرها واستقلها . وفي حديث : لاتجدفوا بنعم الله .
(٤) ( العفلطة ) تخليط الخبر ( والعسلطة ) الكلام على غير نظام .

عجبنا اذ سمعنا المقترح ، وأطلنا الكركرة والقهقهة . إنّ على مبدعنا أن يستشير تلكم الذريرات ( أعني الأناسية ) في الكون أو في العدم ، ويقول لها : « أنت على المتخير ، أنت بالمختار ، أنت بالخيار . ولها أن تنعم أو تلالي [1] .

[ وربك يخلق مايشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة ، سبحان الله وتعالى عما يشركون ] .

« ذريةَ الانس ، لا تزهوا فانكم ذرا تعدون أو نملاً تضاهونا [2] »

ان الاناسيّ لم يتمثلوا بشراً أو أبشاراً أسوياء إلا من بعد آلاف من الحقب ومن بعد أطوار مختلفات كثيرات لايعلم عددهـا إلا الله . ومثل ابن الشبل انما نشأ ذريرة لاتكاد ترى بالمجهر [ ثم أنشأناه خلقاً آخر ] درّجته سنة الله إلى حيث انتهى أو ارتقى . وكان لايحس في وقت ولا يسمع وما عقل ان عقل — إلا بالأمس ، ففي أي طورٍ وفي أي حين يخير أو يستشار ؟ .

[ ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى ] او رآه قد احتسى من بحر علم الله حسوة . !

***

ان قوماً لم يريدوا ان يكونوا ، وما احبوا ان يكون غيرهم ، فذموا الدنيا ذاك الذم ، وصبغوها للناظرين بأردإ صبغ بأبشع صبغ « غرارة ضرارة ، حائلة زائلة ، نافذة بائدة ، أكالة غوالة [3] » كما يقول قطري ، ان كان قال هذا . وهجوا قطين الأرض ، أهل الدنيا شر هجاء .

---

(١) تلالي : تقول : لا ، لا .

(٢) أبو العلاء .

(٣) من خطبة أوردها الجاحظ في ( البيان والتبيين ) وابن عبد ربه في ( العقد ) وروى بعضها ابن قتيبة في ( عيون الأخبار ) وعزاها هؤلاء الى قطري بن الفجاءة . ورواها الرضي في مجموعة ( النهج ) وقال شارحه ابن أبي الحديد : « قد رأيتها في كتاب ( الموتق ) لأبي عبدالله المرزباني مروية لأمير المؤمنين ( عليه السلام ) وليس ببعيد عندي أن يكون قطري قد خطب بها بعد أن أخذها عن بعض أصحاب أمير المؤمنين ، فان الخوارج كانوا أصحابه وأنصاره وقد لقي قطري أكثرهم » قلت : صائنها عندي مجهول .

خذ جملة البلوى ودع تفصيلها ما في البرية كلها إنسان (١)

---

أتمنى على الزمان محالاً أن ترى مقلتاي طلعة حر (٢)

---

زمان يمر وعيش يمر ودهر يكر بما لايسر
وحال يذوب ، وهم ينوب ودنيا تناديك أن ليس حر (٣)

واذا سمعوا المتفائلين الخلص يقولون : ( ليس في الامكان أبدع مما كان ) تحدوهم صائحين : ( ليس في الامكان أقبح مما كان ) وما النجاة عندهم لمرتجي خلاصه مما يقاسي ويرى الا في الانتحار .

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا (٤)

ولهم في قتل الناس نفوسهم وتزيينه أقاويل ، شرحها طويل . وهؤلاء القوم الذين سماهم المصطلح العربي بالمتشائمين واسمهم بالفرنجي ( بسيمسم ) إما أن يكونوا الهيين ومؤمنين ، وإما ان يكونوا دهريين طبيعيين .

[ وقالوا : ماهي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ، ان هم الا يظنون ] .

ودان أناس بالجزاء وكونه وقال رجال : انما أنتم بقل (٥)

---

« ضل الذي قال : البلاد قديمة بالطبع كانت والأنام كنبتها
وأمامنا يوم تقوم هجوده من بعد إبلاء العظام ورفتها (٦)

---

(١) ابن الهبارية .
(٢) البديعي من شعراء اليتيمة .
(٣) ابن مقلة .
(٤) المتنبي .
(٥) و (٦) ابو العلاء ، قال شارح ( سقط الزند ) : « هذا رد على الدهريين الذين يقولون : أن العالم قديم بالطبع لم يزل كذلك ولم يحدث باحداث محدث والناس كالنبات ينبتون ويعودون بالموت هشيماً ، وهذا كفر صريح وضلال بعيد بل الحق أن العالم محدث مخلوق أحدثه الواحد الحق بقدرته » .
وفي « شرح النهج » لابن أبي الحديد :
« قال قاضي القضاة : ان أحداً من العقلاء لم يذهب الى نفي الصانع للعالم ، ولكن قوماً من الوراقين اجتمعوا ووضعوا بينهم مقالة لم يذهب أحد إليها وهي أن العالم قديم لم يزل على هيئته هذه ، ولا إله للعالم ولا صانع أصلا ، وانما هو هكذا ما زال ولا يزال من غير صانع ولا مؤثر . وأخذ ابن—

فان كانوا من الأولين فهل يحق الا الإيقان كل الإيقان بأن ليس ثمة الا الحكمة التامة والاتقان .

[ ماترى في خلق الرحمن من تفاوت ] .
[ صنع الله الذي اتقن كل شيء ] .
[ الذي أحسن كل شيء خلقه ] .
[ صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ؟ ] .

والله أعلم من كل عليم وأحكم من كل حكيم [ أفحسبتم انما خلقناكم عبثا ] وان كانت برهمية وبوذية تريان الكون شراً ، فليست البرهمية والبوذية على شيء . ولا يحتسب بمثلها . وان عدها ( أرثر شوبنهور ) أكمل الاديان طراً من أجل هذا المعتقد .

نعم « ما الدنيا إلا عُمرى [1] ولا خلود إلا في الأخرى [2] » و « الدنيا قنطرة الآخرة » لكن هل علينا أن نقعد في القنطرة نشهق ونزعق ، ونخمش الوجوه ، ونلطم الخدود ، ونلدم الصدور حتى يجيء الأجل ، حتى يجي وقت النقلة و ( الكتاب ) يقول :

[ ولا تنس نصيبك من الدنيا ] .

ونطقُ ( الكتاب ) فصلُ الخطاب .

وان كان القوم المتشائمون من الآخرين فسوف يسألون : هل علمتم كيف كنتم ؟ هل علمتم كيف كانت داركم ؟ إنها كانت داراً تستعر استعاراً ولم تزل بقايا خبايا في الزوايا تضطرم . فاقرءوا تأريخها واقرءوا تأريخكم ، وفتشوا صحائف الأنساب .

---

—الراوندي هذه المقالة فنصرها في كتابه المعروف بكتاب «التاج» . قلت : ذكر الشيخ ابن الراوندي وتاجه هذا في ( رسالة الغفران ) ومما قاله : وأما ابن الراوندي فلم يكن الى المصلحة بهدي ، وأما تاجه فلا يصلح أن يكون نعلاً . . . وهل تاجه الا كما قالت الكاهنة : اف وتف ، وجورب وخف . . .

(١) العمرى ماتجعله للرجل طول عمرك أو عمره . قال ثعلب أن يدفع الرجل الى أخيه داراً فيقول : هذه لك عمرك أو عمري ، أينا مات دفعت الدار الى أهله ، وكذلك كان فعلهم في الجاهلية ( اللسان ) .

(٢) الزمخشري .

[ هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا ] .

وانظروا كيف عادت (١) ( محلة ) (٢) كيف عادت هذه ( الغبراء ) ، وانظروا كيف عدتم بشراً ، وكيف سدتم أقربين وأبعدين . وان تأخر من عترتكم متأخرون اذ تقدم متقدمون فتعلموا أن السابقين والمتوقفين المتمكثين لم يبرحوا في البدء ، لم يبرحوا في أول الطريق ، لم يبرحوا في الطور الشنبنزي كما قال توماس أديسون :

تشبه بعض ببعض فما تزال الشمائل قرديه (٣)

فأجدر بالدهريين الطبيعيين الذين ينشدون :

خذ من الدنيا بحظ قبل أن ترحل عنها
فهي دار لاترى من بعدها أحسن منها (٤)

فلا يرون أن هناك دارين ، وأن هناك معنين : معنى هذي ، ومعنى تلك بل يقولون : كل شيء معناه ومنتهاه فيه — أجدر بهؤلاء ألا يكونوا من المتشائمين في حين . ومقالهم هذا المقال .

* * *

ان الفتى بكونه سعيد ، بكونه حسبُ قد سعد بما وجد — كما يقول الانكليز — فذروا التشاؤم في الحياة يا أيها الناس ؛ وأبهجوا أنفسكم واجتذلوا لعلكم لاتحزنون . كونوا من المتفائلين ، من أهل الفؤول (٥) ، ولا تشاءموا ولا تطيروا وتمثلوا بهذا البيت وقد تمثل به رسول الله كما ذكر الشيخ في رسالة الغفران :

تفاءل بما تهوى يكن فلقلما يقال لشيء كان إلا تحققا

---

(١) العود بمعنى الصيرورة ، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لاتكاد تسمعهم يستعملون صار ولكن عاد ، ماعدت أراه ، عاد لايكلمني ، ماعاد لفلان مال ( الكشاف ) .

(٢) محلة : الأرض ، وكعلة السماء .

(٣) أبو العلاء .

(٤) رواها صاحب ( نفح الطيب ) ولم يسم قائلها .

(٥) جمع الفأل .

وكان ( صلى الله عليه وسلم ) كما روت أحاديث — يتفاءل ولا يتطير .

وكونوا إيثاريين أثريين في هذا الوجود كما تقوا أنفسكم ، وكي تصونوا جنسكم ، وتسعدو وترتقوا . إن الأثرية والايثارية هما القضيلتان العظيمتان متحدتين لامفترقتين ، وأولى لأثري كفر بالايثارية ثم أولى ! وأولى لايثاري لم يؤمن بالأثرية ثم أولى ! ان الأول شرير شيطان من الشريرين ، وان الثاني — إما كان — لذو جنة في المجانين .

واستمعوا لما يقول شيخنا أبو العلاء فقد أعلنت أقواله الحقيقة ، وهدت إلى الطريقة ، وعززت شريعة المتفائلين ، وفندت مذهب المتشائمين ، وبينت للناس كيف يحيون ، وكيف يقوون ، وكيف يسيرون في هذا الوجود .

ولو اطلعنا على أكثر مما اطلعنا عليه مما أملاه الشيخ لروينا من هذه المعاني كتباً كبيرات لاصفحات معدودات ولكن قد حال بيننا وبين المراد جهل الجاهلين وجرم التتر والصليبيين — كما ذكر ذلك من قبل — فاجتزأنا برواية نتفة من الأقل الباقي .

## ٣

الأمل :

لي أمل ، فرقانهُ محكم اقرؤه غضاً كما أنزلا

أجرى من الخيل آمال أصرفها لها بحثيٌّ تقريب وإخباب(١)

لاتقنطن أيها الانسان ، فان بلغتك (٢) عند الله الكريم ، والرزق يطلبك وأنت تبصر الأحلام ، لو أن للرزق لساناً هتف بمن رقد ، أو يداً لجذب المضطجع باليد ، أو قدما لوطيء على الجسد . لايزال الرزق مرتقاً على الهامة ترنيق (٣) الطير الظمآء على الماء المطمع (٤) .

(١) التقريب والخبب : ضربان من سير الفرس في الأصل .

(٢) البلغة مايتبلغ به من العيش ولا فضل فيه ، وتبلغ بكذا اكتفى به .

(٣) رنق الطائر خفق بجناحيه في الهواء ورفرف ولم يطر .

(٤) المطمع الذي أطمعها في النزول عليه ( أبو العلاء ) .

سمّ الهلال إذا عاينته قمراً إن الأهلة عن وشك لأقمار

وقد يخمل الانسان في عنفوانه وينبه من بعد النهى فيسود

أحسبت الخير ليس بمثمر؟ بلى. ان للخير ثمرة لذت في المطعم، وتضوعت لمن تنسم، وحسنت في المنظر والمتوسم، وجاوزت الحد في العظم، فما ظنك بثمرة هذه صفتها؟.

## هوّن عليك:

الأمر أيسر مما أنت مضمره فاطرح أذاك وهوّن كل ماصعبا

إذا تفكرت فكراً لايمازجه فساد عقل صحيح هان ماصعبا

العلم كالقفل، ان ألفيته عسراً فخله ثم عاوده لينفتحا

دع ماضر وصعب، إلى مانفع وهان. واترك المضلة إلى المرشدة فان طرقات الخير كثير.

## لاطيرة

الأيام كلها لله، وربما ساءتك عروبة[1]، وسرك الخميس. وإذا نزل بك نازل في يوم فلا تمقته لذاك.

## بركات الله ورحمته

يبث الله في نهار وليل بركات من رزقه مدروره[2]

غشيت رحمة الله كل الحيوان، وتكفل بالرزق لكل المتغذيات.

---

(١) الجمعة، في «النهاية»: هو اسم قديم لها وكأنه ليس بعربي، يقال: يوم عروبة والعروبة والأفصح ألا يدخلها الألف واللام.

(٢) «مدرورة» كثيرة، في الاساس: ومن المجاز: درت الدنيا على أهلها إذا كثر خيرها.

فرح الملأ بالكلأ (١) وحق لهم أن يبتهجوا برزق الله الكريم . جاء اللبأ (٢) وذهب الوبأ (٣) ، فسبحان الله العظيم ! ياخصب ، ثب لتراق الكثب (٤) على الكثب (٥) وعلى الله رزق العالمين .

---

والشمس تغمر أهل الأرض مصلحة ربت جسوماً وفيها للعيون سنا

---

طهت لك الشمس مايغني اخادعة عن أن يكون له في الأرض طاهونا

---

الاقدام، الجسارة :

---

واني رأيت الصعب يركب دائماً من الناس من لم يركب الغرض الصعبا

---

والعيش جسر ، نال من هو جاسر أو كاد فيه وخاب من لم يجسر

---

ويحمد الصابر الموفي على غرض لا عاجز بعرى التقصير معقود

---

ينبغي للمسبوق ألا يؤثر بصبوح ولا غبوق (٦) ، فليستحي المتأخر أن يفتخر

---

الخيف من رأي السخيف ، فاجر على معارتك في تقوى الله ؛ والخيل بفوارسها متمطرات (٧) .

---

انما نحن في أحلام نائم لاأحلام ذوي العزائم ، وقد يرى الراقد نفسه مع

---

(١) الكلأ : العشب ج أكلاء .

(٢) اللبأ : اللبن ، أوله .

(٣) بالقصر والمد .

(٤) الكثبة الطائفة من طعام او غيره ، القليل من اللبن .

(٥) الكثيب : التل من الرمل .

(٦) الصبوح كل ما أكل وشرب غدوة وهو خلاف الغبوق : شرب العشي « اللسان » .

(٧) ( الخيف : جمع خيفة ، (المطرة ) العادة « متمطرات » جمع متمطرة وهي المجتهدة في العدو ) . والتفسير للشيخ .

الفراقد ، فاذا استيقظ رآها بالجدد (١) .

وكن في كل نائبة جريئاً تصب في الرأي ان خطيء الهدان (٢)
وسائل من تنطس في التوقي لأية علة مات الجبان (٣)

اشجع فان أقدار الله لاتعجل الى الشجاع . صل على الظالم بالمنصل (٤) .

## الدنيا ، الحياة :

خلقت من الدنيا وعشت كأهلها أجد كما جدوا وألهو كما لهوا

أمور دنياك سطر خطه قدر وحبها في السجايا أول السطر

ولا تظهرن الزهد فيها فكلنا شهيد بأن القلب يضمر عشقها

نفسي بها ونفوس القوم ملهجة ونحن نخبر أنا لانباليها (٥)
أمرتني بسلو عن خوادعها فانظر هل أنت مع السالين ساليها؟
ولا ترى الدهرَ إلا من يهيم بها طبعاً ، ولكنه باللفظ قاليها
فترو من هذي الحيا ة لكي تموت النفس ريا

* * *

## الموت ، كرهه

والنفس آلفة الحياة فدمعها يجري لذكر فراقها منهلُ !

ولم أرد المنية باختياري ولكن أوشك الفتيان سحبي (٦)

(١) « الجدد » : الارض .
(٢) الهدان الضعيف الجبان الذي لايهتدي لأموره (شرح السقط ) والهدان الاحمق الثقيل .
(٣) تنطس في كل شيء اذا ادق فيه النظر (الاساس) .
(٤) المنصل ـ بضم الميم والصاد ، وبضم الميم وفتح الصاد ـ السيف . في التاج : قال ابن سيده : لانعرف في الكلام اسماً على مفعل ومفعل الا هذا وقولهم منخل ومنخل .
(٥) ملهجة : مولعة .
(٦) الفتيان الليل والنهار .

ولو خيرت لم أترك محلي فأسكن في مضيق بعد رحب !

فليت الفتى كالبدر جدد عمره يعود هلالاً كلما فني الشهر !

أحسن بدنيا القوم لو ان الفتى لايقتضى ، وأديمه لايحلم (١) !

تضاعف همي أن أتتني منيتي ولم تقض حاجي بالمطايا الرواقص (٢) !

فواهاً لأشباح لكم غير أنها تبدلُ من أوطانها برموس !

أنبأنا اللبب بلقيا الردى فالغوث من صحة ذاك النبأ ! ! !

## موت البطولة

هناك ضرب من الموت لايكره ولا يذم بل يحب ويعظم ، وهو موت البطولة في الوغى . وقد حرض الشيخ عليه ، والحرب شرعة العربي :

إذا المرء لم يغش الكريهة أوشكت حبال الهوينى بالفتى أن تقطعا (٣)

والجهاد من دين المسلم :

[ كتبَ عليكم القتالُ وهو كرهٌ لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم ، وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم ، والله يعلم ، وأنتم لاتعلمون ] .

[ وجاهدوا في الله حقّ جهاده ] .

[ وجاهدوا في سبيله لعلكم تفلحون ] .

[ انفروا خفافاً وثقالاً (٤) ، وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ] .

---

(١) يقتضي : يطالب كأن الحياة دين عنده فأذا جاء الأجل انتضاه المقتضي .

(٢) رقص البعير يرقص رقصاً ـ محرك القاف ـ اذا اسرع في سيره . ولا يقال يرقص الا للاعب والابل وما سوى ذلك فإنه يقال : يقفز وينقز . ( اللسان ) .

(٣) الكلحبة العرفي في مفضلية .

(٤) خفافاً من السلاح وثقالاً منه أو ركباناً ومشاة أو شباباً وشيوخاً أو صحاحاً ومراضا ( الكشاف ) القصد بالآية الحث على النفر على كل حال تصعب أو تسهل (مفردات الراغب) .

وإذا كان الحال كما قال الشيخ :

وما سلُّ الهند للتوقي كسل المشرفية للتشفي

فالموت يومئذ خير من ألف حياة ، خير من الخلود .

* * *

من السعد في دنياك أن يهلك الفتى بهيجاء ينشى أهلها الطعن والضربا
فان قبيحاً بالمسوّد ضجعة على فرشه يشكو إلى النفر الكربا

---

كل يحاذر حتفاً وليس يعدم شربه
ويتقى الصارم العضـــب أن يباشر غربه
والنزع فوق فراش أشدّ من ألف ضربه

---

لقد ركزوا الأرماح غير حميدة فبعداً لخيل في الوغي لم تطارد !
وما يجمع الأشتاتَ إلا مهذب من القوم يحمي بارداً فوق بارد (١)

---

لضربة فارس في يوم حربٍ تطير الروح منك مع الفراش (٢)
أخف عليك من سقم طويلٍ وموت بعد ذاك على الفراش

---

ألا تنهض للحرب وتدعو للوغى شوسك (٣) ؟

---

وقد علمتُ وغيري عن مشاهدة أن الملا الفـقوم في الوغي ليسِ (٤)

---

وجدتك اعطيت الشجاعة حقها غداة لقيت الموت غير هيوب

---

من السعادة أن يموت القوم كراماً .

---

(١) ( البارد ) السيف ، البوارد السيوف القواتل ( اللسان ) يحمي السيف فوق الدرع أو السيف فوق السيف .
(٢) فراش الرأس : عظام رقاق تلي القحف .
(٣) الأشوس : الجريءُ على القتال الشديد ( اللسان ) .
(٤) رجل أليس من رجال ليس وهو الذي لا يبالي هولاً ، ولا يروعه شيءٌ ( الاساس ) .

للحديد العلا على سائر الجوهـــر ذلّ العدى وعزّ الضيوف

فوارس خيلكم تعطي مناها إذا دمّى نواجذها الشكيم (١)
وفي بيض السيوف بياض عيش بذلك — فاعلموا — نطق الحكيم

* * *

القوة :

يخضع الظبي الأخضع (٢) ، وينتصر الليث المهتصر .

* * *

المال ، تشميره :

والمال خدن النفس غير مدافع والفقر موت جاء بالاهمال
أو ما ترى حكم النجوم مصوراً بيت الحياة يليه بيت المال

ماأليسر كالعدم في الاحكام بل شحظت حال المياسير عن حال المحاويج

أنفق لترزق فالثراء الظفر ، ان يُترك يَشن ويعود حين يُقلم

ينبغي لمن يرث أن يحترث ، وإلا فني التراث .

جل من سخره لقضاء الحاج

أعتمد على ذي وجهين ، ما عُرف قط بالمين . لو كان رجلاً لكان ناصح الجيب . . . سبح ربه مذ خلق ، اذا انطلق به فهو منطلق . ومتى بُعث في المآرب قضاها ، والله بلطفه أمضاها . ثم يُحبس ولا ذنب له ، سجن فهو طول الدهر مستريح ، لاتلج عليه الشمس ولا الريح . لايأكل ولا يشرب . . . له منزل

(١) الشكيمة في اللجام الحديدة المعترضة في فم الفرس التي فيها الفاس . وفأس اللجام الحديدة القائمة في الحنك .

(٢) الأخضم الذي في عنقه خضوع خلقة (أبو العلاء) . رجل اخضع : راض بالذل ( الاساس )

مادخله الهم . . . اذا غاب الحافظ عنه فله الختم ، وليس ذلك من القضاء الحتم . . . خص بالعمر الطويل ، وتناسخه جيل بعد جيل ، فظهر في الأكاليل ، والاسورة والخلاخيل ، والكأس الدائرة بشراب الكرم والنخيل ، ماشاب ولا هرم ، ولا درَم (١) للكبر ولا درِم (٢) ملكه قوم فدفنوه ، فتطاولت في الأرض سنوه ، ثم ظهر ما نُسي اسمه ، ولا تغير جسمه . . . به صفرة من غير الضرب ، ظهر بها في الشرق والغرب . . . تلقاه معلماً بالتوحيد ، وليس بالعالم ولا البليد ، ولكن الله أنطق بعظمته كل جماد . . . جلّ من سخره لقضاء الحاج .

* * *

العمل :

تروم رزقاً بأن سموك متكلاً وأدين الناس من يسعى ويحترف

لاتقومن في المساجد ترجو بها الزلف
معملا بسط راحتيك الى نائلٍ يلف
ورم الرزق في البلاد فان رمته ازدلف

يعرى الفقير وبالدينار كسوته وفي صوانك ماإعداده خرف

أملكُ من شداد بن عاد ساعة تفتقر الأملاك رجل اشترى كرّاً (٣) ، وقصد منابت الشجر محتطباً ، فرجع بالعضد (٤) متكسباً ، فأحل في المكسب وأطاب .

لايصبرن فقير تحت فاقته ان السباريت جابتها السباريت (٥)

(١) درم من الدرمان وهو تقارب الخطو .

(٢) درم من الدرم وهو سقوط الاسنان ، ومن ذلك قيل : كعب ادرم ، والمعنى ان نقشه لم يزل وخشونته لم تملس ( أبو العلاء ) .

(٣) الكر : الحمل ج كرور .

(٤) العضد : ماعضد من الشجر ، وعضده قطعه بالمعضد وهو كل ماعضد به الشجر (اللسان) .

(٥) ( السباريت ) القلوات [ جابتها ] قطعتها [ السباريت ] المساكين والمحتاجون ، جمع سبروت وسبريت . وفي نقائض [ جرير والأخطل ] لأبي تمام : صعلك الرجل وسبرت اذا افتقر . وفي [ التاج ] سبرت الرجل قتم وتمسكن .

من في اللجة يغبط السائر على المحجة، والمسافر يغبط المقيم، والغنيمة مع الظاعنين.

---

العمل ـ وان قل ـ يُستكثر اذا اتصل ودام .

---

من سهر في الليالي السود فأحر به أن يسود .

---

بُلغ أمل بعمل ، وأهل التقصير بلا عون ولا نصير .

---

أجد عملك وجِدّ فيه .

---

طدْ بناءك على أس .

* * *

## الثمر ، النبات :

فاذا ملكت الأرض فاحم ترابها من غرسه شجراً بغير ثمار

---

اذا رملة لم تجيء بالنبات فقد جهلت إن سقتها السواني (١)

* * *

## النسل ، الزواج

والنسل أفضل مافعلت بهـا فاذا سعيت له فمن عقل

---

إذا شئت يوماً ان تقارن حرة من الناس فاختر قومها ونجارها

---

اذا خطب الحسناء كهل وناشئ فان الصبا فيها شفيع مشفع
ولا يزهدنها عدمه ، إن مُده لأبرك من صاع الكبير وأنفع
وما لأخي الستين قدرة سائر اليها ولكن عجزه ليس يُدفع
ويخفض في كل المواطن ذمه وان كان يُدنى في المحل ويرفع

---

اذا ما ابن ستين ضم الكعاب اليه فقد حلت البهلة (٢)

---

(١) السانية : الساقية ، عنى بالسواني السحب .

(٢) البهلة ـ بالفتح ويضم ـ اللعنة ، ومنه حديث أبي بكر : من ولي من أمر الناس شيئاً فلم يعطهم كتاب الله فعليه بهلة الله .

هو الشيخ لم يرضه أهله ولم يرض في فعله أهله (١)
فلا يتزوج أخو الأربعين الا مجربة كهله
رأى الشيب في عارضيه المسن فنعم القرين له الشهله (٢)

اذا كانت لك أمرأة عجوز فلا تأخذ بها أبداً كعابا
فان كانت أقل بهاء وجه فأجدر أن تكون أقل عابا
وحسن الشمس في الأيام باق وان مجّت من الكبر اللعابا
ومن جمع الضرات يطلب لذة ، فقد بات بالأضرار غير سديد

* * *

## معاملة الصغار

ورفقاً بالأصاغر كي يقولوا غدونا بالجميل معاملينا
فأطفال الاكابر إن يوقوا يروا يوماً رجالاً كاملينا

لا تزدرن صغاراً في ملاعبهم فجائز أن يروا سادات أقوام
وأكرموا الطفل عن نكر يقال له فان يعش يدع كهلاً بعد أعوام

* * *

## ... وبالوالدين احسانا

العيش ماض فأكرم والديك به والأم أولى بأكرام وإحسان
وحسبها الحمل والارضاع تدمنه أمران بالفضل نالا كل انسان

(١) والشيخ :

وواحدة كفتك فلا تجاوز الى اخرى تجيء بمؤلمات
ولا يتأهلن شيخ مقل بمعصرة من المتنعمات
فان الفقر عيب إن أضيفت اليه السن جاء بمؤلمات

(٢) الشهلة : النصف الناقة ، العجوز وذلك اسمها خاصة ، وامرأة شهلة كهلة ، ولا يقال : رجل شهل كهل ولا يوصف بذلك إلا أن ابن دريد حكى : رجل شهل كهل .
والشيخ :

اذا خطب الزهراء شيخ له غنى وناشيء عدم آثرت من تعانق

تحمل عن أبيك الثقل يوماً فان الشيخ قد ضعفت قواه
أتى بك عن قضاء لم ترده وآثر أن تفوز بما حواه

* * *

## حفظ الصحة

دار نفسك وان بلغت سن الهرم كما يداري الوليد .

## إفراط الشبع آفة على كل حيوان .

سمنك خير لك من درة زهراء تعشي أعين الناظرين
عجبت للضارب في غمرة لم يطع الناهين والآمرين
يكسر باللؤلؤ من جهله خشباً عنت عن أنمل الكاسرين

تجزأ ولا تجعل لحتفك علة باكثار طعم ، ان ذلك لوم (١)

لاتربلنّ وكن رئبال مأسدة ان الرشاد ينافي البادن الربلا (٢)

* * *

## الشبيبة

اذا ما خبت نار الشبيبة ساءني ولو نُص لي بين النجوم خباء

ان الشبيبة نار ان أردت بها امرأ فبادره ، ان الدهر مطفئها

* * *

## السفر

لو ملكت الرحيل جولت في الآفاق حتى يملني التجويل .

* * *

(١) تجزأ بالشئ : قنع بالشئ واكتفى به . اكتف بجزء من أكلك .
(٢) الربالة : كثرة اللحم وهو ربيل وربل .

## أدب السلوك

الكتاب المختوم يشتمل على سر مكتوم ، فان فضضته ولم يأذن من أمنك عليه فقد أوضعت (١) في سبيل الخائنين .

لا يبصر القوم في مغناك غسل يد ... على الطعام الى أن يرفع السور (٢)
ولا يكن ذاك الا بعد كفهم ... أكفهم ، ويسيرُ الفعل ميسور
فان تقريب خدام الفتى حرضاً ... والضيف يأكل رأي منه مخسور (٣)

* * *

## لكل زمان ما يشاكله

أعدد لكل زمان مايشاكله ... ان البراقع يُستثبتن بالشبم (٤)
فان ضربت بسيف الهند في ومد ... فسيف افرنجة المخبوء للشبم (٥)

* * *

## المرء شبه زمانه

وإن الفتى فيما أرى بزمانه ... لأشبه منه شيمة بأبيه (٦)

* * *

## النـــاس

والناس بالناس من حضر وبادية ... بعض لبعض ـ وان لم يشعروا ـ خدم (٧)

---

(١) مشيت .

(٢) سور بمعنى عرس ووليمة ( شفاء الغليل ) وفي النهاية ) في حديث جابر أن رسول الله ( ص ) قال لأصحابه : قوموا فقد صنع جابر سوراً أي طعاماً يدعو الناس اليه ، واللفظة فارسية .

(٣) الحرض : الأشنان تغسل به الثياب والأيدي على أثر الطعام .

(٤) الشبامان خيطان في البرقع تشده المرأة بهما في قفاها .

(٥) ( ومد ) حر ( المخبوء ) المعد المدخر الشبم ( البرد ) .

(٦) في ( امالي القالي ) : هشام بن عروة : الناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم وروى ابن هندو في كتابه ( الكلم الروحانية في الحكم اليونانية ) لأفلاطون : لا تقسروا أولادكم على آدابكم فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم .

(٧) قالوا : الحضر ، محركة فهل سكنت ضرورة ؟

ان خالفوك ولم يجرر خلافهم شراً فلا بأس ،ان الناس أخياف (١)

قال الخليفة العظيم عمر : « أعقل الناس أعذرهم للناس »

ومن عرف الناس وتاريخهم ووراثتهم القريبة والبعيدة ( L'atvisme ) ومنشأ مايسمى ( رذائل ) وأسبابها عذر ولم يستعجب مما يشاهد . يقول الشيخ :

يلقاك بالماء النمير الفتى وفي ضمير النفس نار تقد

يعطيك لفظاً ليناً مسه ومثل حد السيف ما يعتقد

وهذان البيتان ان دل ظاهرهما على معايب في الناس ففيهما ماينبيء بارتقاء لهم عجيب ، فقد أمسى هذا الفتى الذئب الجشع الحاسد المحتقد سافك دم أخيه من أجل ثعلب ظفر به أو يربوع ومن أجل مستنقع يرده أو مطيطة (٢) ـ قد أمسى هذا الفتى وارث الغرائز يلقاك أحسن لقاء ويخاطبك خطاباً جميلاً وفي الضمير والمعتقد ماأبان الشيخ . فاذا طال تكلفه مايتكلفه ، واستمر اعتياده مايعتاده « وعادة المرء تدعى طبعه الثاني » كما يقول شيخنا حكى بعد أدهار باطنه ظاهره ، اشبه جوانيه برانيه ، وحسبك منه اليوم ذاك اللقاء وذاك العطاء وان كان في ضمير النفس نار تقد ، وساء مايعتقد .

## ... كذلك سخرناها لكم :

قال الامام ابن قيم الجوزية في كتابه ( طريق الهجرتين وباب السعادتين ) :

«... ولما انتهى أبو عيسى الوراق الى حيث انتهت اليه أرباب المقالات طاش عقله ، ولم يتسع لحكمة إيلامٍ وذبحه صنف كتاباً سماه ( النوح على البهائم ) فأقام عليها المآتم ، وناح وباح بالزندقة الصراح » .

وقال العلامة الفيومي في المصباح :

ويحرمون ـ يعني البراهمة ـ لحوم الحيوان ، ويستدلون بدليل عقلي فيقولون : حيوان بريء من الذنب والعدوان فايلامه ظلم ، خارج عن الحكمة . وأجيب بظهور الحكمة ، وهو أنه استسخر للانسان تشريفاً له عليه ، واكراماً له كما استسخر النبات للحيوان تشريفاً للحيوان عليه . وأيضاً فلو ترك حتى يموت حتف أنفه مع

(١) من المجاز : هؤلاء أخياف أي مختلفون .

(٢) المطيطة : الماء المختلط بالطين الذي يتمطط أي يتمدد لكثورته [ الفائق ] .

كثرة تناسله أدى الى امتلاء الأفنية والرحاب وغالب المواضع ، فيتغير منه الهواء ، ويكثر به الفناء ، فيجوز ذبحه تحصيلاً للمصلحة وهي تقوية بدن الأنسان ، ودفع لهذه المفسدة العظيمة . واذا ظهرت الحكمة انتفى القول بالظلم والعبث » .

وشيخنا المعري يقول داعياً الى الارتفاق به :

يأكل أطايب الأعفاء من سمح بالرسل في أيام السفاء (١) ، ويلج الغمار باذل السمار (٢) ، وتثني الضيفان على الجائد بمل ء الجفان . لايثني عليك فصيل بالأصيل . ومن اخضرت شربته (٣) بالواد اكمات مربده بالتمر الجلاد (٤) . ومن ركب العامة (٥) في طلب الصيد كانت بطون عيالاه قبوراً للحيتان . ومن تتبع بقوسه موارد الوحش كثر في منزله الوشيق (٦) .

وقال ( الوليد ) : النبع ليس بمثمر وأخطأ سربُ الوحش من ثمر النبع (٧)

---

(١) [ الأعفاء ] جمع عفو وهو الجحش [ السفاء ] قلة اللبن ، يقال : ناقة سفي وهي ضد الصفي ، والمعنى أن من سقى فرسه اللبن في أيام قلته طرد عليه الوحش فصادها [ أبو العلاء ] . العفو : الجحش سمي به لأنه يعفي عن الركوب والأعمال [ الفائق ]

(٢) [ الغمار ] جمع غمرة وهي الشدة [ السمار ] اللبن المذيق ، والمعنى أن من سقى فرسه سماراً وثق بجريه فولج غمار الحرب [ أبو العلاء ] .

(٣) اخضرت شربته أي صار عليها طحلب من كثرة الماء وادمان السقي ( أبو العلاء ) الشربة مثل الحويض يحفر حول النخلة والشجرة ، يملأ ماء يسع ريها فتتروى منه ، والجمع شرب وشربات ( التاج ) .

(٤) اكمات المربد أي صار فيه ثمر يوصف بالكمئة ، والعرب تصف التمرة بالكمئة ، والجلاد جمع جلدة وهي التمرة الشديدة التي لاتتوسف أي تتقشر ( أبو العلاء ) .

(٥) العامة ضرب من السفن ( أبو العلاء ) وفي الاساس : وركبوا العام أي الارماث الواحد عامة لأنها تعوم في الماء وفيه : وركبوا الرمث في البحر وهو الطوف : وهو من قرب منفوخ فيها .

(٦) الوشيق اللحم المقدد طولا ، والقطعة وشيقة ( أبو العلاء ) .

(٧) ( في شرح سقط الزند ) :

« أراد الوليد بن عبيد البحتري وذلك أنه قال في شعره :

وعيرتني خلال العدم آونة والنبع عريان ، مافي عوده ثمر

يعني بالنبع الشجر الذي يعمل منه القسي ، قال البحتري : ( ان النبع لاثمر له ) وقد أخطأ في قوله فان قطيع الوحش التي تصاد من الظباء والحمر والبقر الوحشية ـ من ثمار النبع ، وذلك أن القسي انما تبرى من النبع ، ويرمى الى الوحش عنها ، وتصاد بها ، فالوحشي اذن من ثمر النبع ... » و ( عريان ) مصروف ، وقد ترك البحتري صرفه ضرورة .

جلة ابلك وعشارها (١) أروت ضيفك غزارها ، وملأت جفانك وذارها (٢) لن تبكيك بكارها اذا السنة كثر قطارها ، وذُبح في الروضة فارها (٣) ، واعتم بالروضة بهارها (٤) . سائم إبلك شرارها .

* * *

الاثرية ، الايثارية .

ان ترد أن تخص حراً من الناس بخير فخص نفسك قبله .

اذا لم يكن لي بالشقيقة منزل فلا ظهرت عزاؤها والشقائق (٥)

اذا كان إكرامي صديقي واجباً فاكرام نفسي ـ لامحالة ـ أوجب

ومن أطال خلاجاً في مودته فهجره لك خير من تلافيه (٦)

اذا ولى صديقك فول عنه ، فانما يُنزل بالوادي ذي الشجر والروض العميم (٧) ويقدح بزند العفار (٨) مادام واري النار ، فاذا خبت ناره بطل اختياره ، واذا السقاء لم يمسك الماء فهو زيادة في مشقة المسافر .

---

(١) « الجلة » اللسان ـ الكبار ـ من الأبل يكون واحداً وجمعاً ويقع على الذكر والأنثى « اللسان » عشراء أتى على حملها عشرة أشهر والجمع عشار ومثله نفساء ونفاس ، ولا ثالث لهما « المصباح »

(٢) وذارها جمع وذرة وهي القطعة من اللحم « أبو العلاء » .

(٣) ذبح الفار المسك وهو ههنا استعارة للروض « أبو العلاء »

(٤) اعتم النبت اذا طال وكثر [ أبو العلاء ] . [ البهار ] : نبت طيب الريح : النرار .

(٥) [الشقيقة] الفرجة بين الرمال [ الغزاء ] المطر الشديد الوابل [الشقائق ] سحائب تبعجت بالامطار الغدقة ، والشقائق هو هذا الزهر الاحمر المعروف .

(٦) [ خلاجاً ] نزاعاً : جنباً .

(٧) كل ما اجتمع وكثر عميم والجمع عمم ، والعميم الطويل من الرجال والنبات [ اللسان ] .

(٨) العفار شجر يتخذ منه الزناد ، المرخ والعفار شجرتان فيهما نار ليس في غيرهما من الشجر [ اللسان ] وفي أمثالهم : ( في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ) وقد رواه الميداني وشرحه .

لاتاو (١) لمفسد تاو (٢) ، فان الذيب جدير بالتعذيب .

---

آخ في الله الاخوان ، ولا تقل لبعيرك : إخّ في دار الهوان (٣) .

---

ادفع الشر اذا جاء بشر وتواضع انما أنت بشر

---

بأي لسان ذامني متجاهل عليّ ، وخفق الريح فيّ ثناء
تكلم بالقول المضلل حاسد وكل كلام الحاسدين هراء

---

اذا ماقلت نثراً أو نظيماً تتبع سارقو الألفاظ لفظي

---

كأني اذا طلت الزمان وأهله رجعت وعندي للأنام طوائل (٤)
وقد سار ذكري في البلاد فمن لهم باخفاء شمس ضوءها متكامل
واني وان كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل
وطال اعترافي بالزمان وصرفه فلست أبالي من تغول الغوائل
فلو بان عضدي ما تأسف منكبي ولو مات زندي ما بكته الأنامل

---

وكم من طالب امدي سيلقى دوين مكانيَ السبع الشدادا
ويطعن في علايَ وإن شمسي ليأنف أن يكون له نجاداً
ويظهر لي مودته مقالاً ويبغضني ضميراً واعتقادا
لي الشرف الذي يطأ الثريا ، مع الفضل الذي بهر العبادا
وأحسب ان قلبي لو عصاني فعاود ماوجدت له افتقادا

---

تعاطوا مكاني وقد فتهم فما أدركوا غير لمح البصر
وقد نبحوني وما هجتهم كما ينبح الكلب ضوء القمر

* * *

(١) أوى له : رق ورثى له ، وأشفق عليه ، يأوي ، أوية ومأواة .
(٢) تاو : هالك ، توي كرضي يتوى وطي تقول : توى كسعى .
(٣) إخ ـ بسكون الخاء وفتحها ـ صوت الناخة الجمل ، ولا فعل له .
(٤) طلت : فقت (الطوائل ) ج طائلة : الترات الذحول .

وافعل بغيرك ماتهواه يفعله وأسمع الناس ماتختار مسمعه(١)

ولو أني حبيت الخلد فرداً لما أحببت بالخلد انفرادا
فلا هطلت عليّ ولا بأرضي سحائب ليس تنتظم البلادا

فياوطني ، ان فاتني بك سابق من الدهر فلينعم لساكنك البال

وما سرني أني أصبت معاشرا بظلم واني في النعيم مخلد

فانفع اخاك على ضعف تحس به ان النسيم بنفع الروح هباب

كيف لايشرك المضيقين في النعمة قوم عليهم النعماء

أنجد أخاك على خير يهم به فالمؤمنون لدى الخيرات أنجاد

فجد بعرف ولو بالنزر محتسباً ان القناطير تحوى بالقراريط

(١) هذا البيت يشمل الاثرية والايثارية معاً . ولحكماء الاغريق قبل التاريخ الميلادي بخمس مئة سنة وفي الانجيل ولحكيم الصين مايشبه قول الشيخ . وروى البخاري في جامعه : « لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه مايحب لنفسه » والحديث الكريم - كما ترى - هو أثري ايثاري . ولأبي العتاهية .

ولا خير فيمن ظل يبغي لنفسه من الخير مالا يبتغي لأخيه

وروى البحتري في حماسته لعبد الله بن معاوية الجعفري .

ارض للناس مارضيت من النا س والا فقد ظلمت وجرتا

وروى السبكي في طبقات الشافعية الكبرى لأبي سليمان الخطابي :

ارض للناس جميعاً مثل مارضى لنفسك
انما الناس جميعاً كلهم أبناء جنسك
فلهم نفس كنفسك ولهم حس كحسك

وفي (كامل) المبرد هذا القول : «خير الناس للناس خيرهم لنفسه» قال أبو العباس: وذلك أنه اذا كان كذلك اتقى على نفسه من السرق لئلا يقطع ومن القتل لئلا يقاد ، فسلم الناس منه باتقاء على نفسه .

فدار خصمك ان حق أنار له ولا تنازع بتمويه واجلاب

---

اذا ماتبينا الأمور تكشفت لنا وأمير القوم للقوم خادم

---

لايتركن قليل الخير يفعله من نال في الأرض تأييداً وتمكينا

---

أضيء بالمعروف وأتلق ، وأطلق يمناك فغداً تنطلق .

---

انظر بين يديك ، واجعل الشر تحت قدميك ، واذا دعا السائل فقل لبيك ، واذا الجأعدوك الدهر إليك فانس حقودك الغبرات(١)، أطعم سائلك أطيب طعاميك ، واكس العاري أجد ثوبيك ، وامسح دموع الباكية بأرفق كفيك .

الرجل كل الرجل من آتى الزكاة ، ورحم المسكين ، وتبرع بما لايجب عليه ، وكره الحنث ، وكفر عن اليمين .

---

لتكن سماؤك ثرة (٢) ، وثرى (٣) أرضك قريباً ، فنعم الشيء الثراء لمن كسا العاري وأطعم السغبان .

---

ذرّت (٤) البركة في طعام أكل منه الضعيف ، ونزعت البركة من طعام خص به الغني دون الفقير ، والله مطعم المطعمين . وزر حرام يوقع المحقة في قميص انتسج من حل ، وقطرة الدم تقع في المزادة (٥) فلا يحل منه الطهور .

---

أرِّ نارك لطارقك (٦) ، ولا تؤرها لاحراق الجار ، والله جار (٧) من

---

(١) الغبرات ، القديمات ، ومنه غبر الجرح اذا انتقض لفساد فيه قديم ( أبو العلاء ) .

(٢) عين ثرة غزيرة الماء ، وكذلك السحابة ومطر ثرواسع القطر (اللسان)

(٣) الثري: التراب الندي ، والثرى الندى (اللسان) وفي الاساس: وبلغت ثرى فلان اذا أدركت ماتطلب منه .

(٤) ذرت نثرت ، بذرت .

(٥) المزادة ظرف من جلد يحمل فيه الماء .

(٦) أرى ناره تأرية : أشعلها ورفعها .

(٧) جاره : مجيره .

لا جار له من المستضعفين . وبرّ في قلبك خير من برّة [١] في يدك ، فاتق الله ، وكن من الأبرار الطاهرين .

---

قد نفسك إلى الواجب ولو بجرير ، وكد معاديك بأن تجتنب أفعال الكائدين ، ودل السائل لتكون نعم الدليل ، ودم على ماقربك من الأبرار الطيبين ، ودن من فعل خيراً معك فانك مدين .

---

بابغاة الآثام ، وولاة أمور الأنام ، مرتعُ الجور وخيم ، وغبه ليس بحميد ، والتواضع أحسن رداء ، والكبر ذريعة المقت ، والمفاخرة شر كلام . كلنا عبيد لله .

---

من بخل بطعام ، فقد بخل بقليل الانعام .

---

بعدت رائحة قتار ، تظهر تارة بعد تار [٢] . ثم لاينال خيرها الفقير .

---

النفاق يلبسك ثوب الاشفاق ، والافتقاد يذهب الأحقاد ، والأشر يهلك البشر ، لا كتبنا الله مع الأشرين .

مارّيا قطر [٣] ورائحة حبيب عطر بأطيب من ثناء مستطر [٤] يثني به بر على مبر [٥] .

* * *

تلكم طائفة من أقوال الشيخ ، وفيها التفاؤل كله في الحياة ، وفيها الاثرية — كما أن فيها الايثارية — وكان شيخنا « يلعب بالشطرنج والنرد ويدخل في كل فن من الجد والهزل » كما روى الصفدي في ( نكت الهميان ) وكان خفيف الروح يدْعب ويفاكه ، ومن فكاهته في احدى رسائله إلى

---

(١) البرة حلقة من سوار وقرط ، وخلخال من فضة أو ذهب .

(٢) في ( الصحاح ) : وربما قالوه بحذف الهاء قال الراجز : بالويل تارا والثبور تارا .

(٣) القطر — بضم الطاء وسكونها — العود الذي يتبخر به ، وقد قطر ثوبه ، وتقطرت المرأة ، والعود في المقاطر : المجامر .

(٤) مكتوب .

(٥) أبر الأمور : طلب بها البر والاحسان الى الناس والتحرب الى الله تعالى .

أبي الحسين أحمد بن عثمان النكتي البصري وقد غير هذا اسمه ، وقصر كنيته — هذه النبذة :

« . . . وأهل البصرة (١) ( سلمهم الله ) ينسبون إلى قلة الحنين ، أليس قد مرت به هذه الحكاية وهي انه وجد على حجر مكتوب :

ما من غريب وان أبدى تجلده إلا سيذكر عند العلة الوطنا

فكتب تحته إلا أهل البصرة . فاذا كانت تلك سجيتهم مع أهلهم وأوطانهم فكيف بالذين عرفوهم من اخوانهم ؟ والدليل على ماقلت أنه — ادام الله عزه — لم يثبت (٢) اسمي ، جعلني محمداً واسمي أحمد . . . وله أن يقول انه تشبث بالكنية فاستغنى بها عن الاسم . فأما أنا فحفظت اسمه وكنيته ونسبه ، ولم أنس أيامه ولا مذاكرته ، وقد جعلت جواب كتابه نائباً مناب الاجتماع معه . . . وما عبت على أهل البصرة قلة التفاتهم إلى الأوطان وانما وصفتهم بقوة القلوب والأكباد لأن العرب تصف نفوسها بذلك ، أليس قد بلغه قول قتادة ابن مسلمة الحنفي :

يبكى علينا ولا نبكي على أحد لنحن أغلظ أكباداً من الابل

فكيف استجاز أن يقصر كنية صديقه ؟ أما السمة فغيرها ، وأما الكنية فقصرها ، فانا لله وانا إليه راجعون ! هذا أمر من الله ليس هو من ضعف الشاعر ولا وهن القائل ولكنه من سوء الحظ لمن خوطب والاتفاق الرديء لمن سمي وذكر . . . وانما تغوثت من ذلك لأني قصير الهمة قصير اليد مقصور النظر أي مكفوف ، مقصور في البيت أي لازم له فكأني محبوس فيه . فما كفاني ذلك مع قصر الجسم حتى يضاف إليه قصر الاسم ، لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . لو كنت أطول من ظل الرمح لصرت أقصر من سالفة الذباب (٣) ، قد كدت أمصح في الارض كما تمصح الظلال (٤) . . وقد مدحني بما ليس في ، ولكنه في ذلك على مذهب الخطباء والشعراء ،

(١) البصرة : مثلثة والفتح والسكون الفتة العالية والنسبة اليها بكسر الباء وفتحها .
(٢) أثبت الشيء : عرفه حق المعرفة . وفي الأساس : أثبت الشيء معرفة اذا قتله علماً .
(٣) السالفة . جانب العنق .
(٤) مصح الظل . ذهب .

وزعم صاحب المنطق في كتابه الثاني من الكتب الأربعة أن الكذب ليس بقبيح في صناعة الشعر والخطابة ، ولذلك استجازت العرب أن تقول فتفرط . . . »

وما ( رسالة الغفران ) العبقرية إلا كتاب أماليح وأفاكيه وأهاكيم (١) .

وكان الشيخ كلفاً بالحمد والمجد « والثناء على الرجل أحسن الملبوسات (٢) »

« وغير ملوم من عشق الثناء لأنه أحسن حبيب مزور وأبقى منفس مذخور (٣) »

وقد أعلن ذلك ابن القارح في رسالته المشهورة إلى أبي العلاء :

« . . . ويعلم الله الكريم ( تقدست أسماؤه ) أني لو حننت إليه ( أدام الله تأييده ) حنين الواله إلى بكرها ، أو الحمامة إلى إلفها ، أو الغزالة إلى خشفها — لكان ذلك مما تغيره الليالي والأيام والعصور والأعوام لكنه حنين الظمآن إلى الماء ، والخائف الى الأمن ، والسليم (٤) إلى السلامة ، والغريق إلى النجاة ، والقلق إلى السكون بل حنين نفسه النفيسة إلى الحمد والمجد ، فاني رأيت نزاعها إليهما نزاع الاسطقسات (٥) إلى عناصرها ، والأركان إلى جواهرها . . . »

* * *

وإذا أقام أبو العلاء في عرينه مضرباً فيه (٦) ، فقد كان مطلاً على الدنيا — وان خيل أنه تخلى منها — وما كان أخا زهد (٧) فيها ، لافكر له في شيء . وكانت شؤون أمته تعنيه أيما عناية ، والمتشائم لاتهمه حالة ، ولا يبالي بأمر بالة . كتب إلى أبي الحسين بن سنان ، وقد أوذم على نفسه الحج (٨) ، والعدو يزأر في الثغور :

---

(١) جمع أهكومة والأهكومة كالأعجوبة من التعجب .

(٢) أبو العلاء في « الفصول والغايات » .

(٣) أبو العلاء في رسالته الى بعض أولياء السلطان يشفع في صديق له كان عاملاً يعرف بالحسين ابن عنبسة . والمنفس كالنفيس ، نفس نفاسة وأنفس انفاساً .

(٤) السليم : اللديغ ، وانما سمي اللديغ سليماً لأنهم تطيروا من اللديغ فقلبوا المعنى كما قالوا للحبشي أبو البيضاء وكما قالوا للفلاة مفازة تفاءلوا بالفوز وهي مهلكة ( اللسان ) .

(٥) العناصر الأربعة في مذهب القدماء وهي الماء والنار والأرض والهواء . . .

(٦) أضرب في بيت : لم يبرح .

(٧) كل من نسب الى شيء فهو أخوه كقولهم اخو سفر واخو عزمات واخو قفار واخو خمر واخو لذة ( المخصص ) .

(٨) اوذم على نفسه حجاً اوجبه وعم به ابو عبيد : واوذم على نفسه سفراً اوجبه (المخصص)

« . . . وسفر مولاي إلى الحج في هذه السنة حرام بسل . . . وهل سمع في أخبار الصحابة ( رحمهم الله ) أو التابعين أن رجلاً خرج من مصافة (١) العدو يريد بيت الله الحرام . . . وهو ( أدام الله تمكينه ) أمين من أمناء المسلمين ، يرهف الشوكة (٢) ، ويستجيد اللأمة (٣) ، ويحصن ماوهى من سور . . . البيت العتيق منذ عصر آدم يزار ويحج ، ماخيف عليه انتقال ولا تحول ، ولا غيره عن العهد مغير . . . أما يعلم أن لأهل البلد أنساً برؤية شخصه واستماع قوله . وما ينبغي أن يكون كما قيل في المثل : ( لج فحج ) ولو قال وليد لوليد في ليل داج وهو حادث محاج : من يؤجر في مقامه في الديار أضعاف أجره في حج واعتمار ؟ فقال الوليد الآخر : ( محمد بن سعيد ) لوقع سهمه غير بعيد . وحماية الذمار (٤) أولى من حج واعتمار . . . »

ولما صبأ الفتى طارق ( خلده الله في جهنم ) .

وفارق دين الوالدين بزائل ولولا ضلال بالفتى لم يفارق (٥)

أرسلها ( لزومية ) صاعقة مجلجلة أحرقت ذاك المضلل . وهذه اللزومية — وهي واحد وعشرون بيتاً (٦) — توضح فرط عنايته بأمته واستمساكه بنحلته ، وتنبيء بأنه كان يداخل القوم في أحوالهم وان كان جليس نفسه (٧) .

* * *

اقرأ كلامي إذا ضم الثرى جسدي (٨) فانه لك ممن قاله — خلف (٩)

**محمد اسعاف النشاشيبي**

---

(١) صافه فهو مصاف اذا رتب صفوفه في مقابل صفوف العدو ، والمصاف — بالفتح وتشديد الفاء — جمع مصف وهو موضع الحرب الذي تكون فيه الصفوف ( اللسان ) .

(٢) الشوكة : السلاح . رهف السيف وأرهفه : رقق حده ، شحذه .

(٣) اللأمة : الدرع المحكمة الملتئمة .

(٤) الذمار كل مايلزمك حمايته والذود عنه . في الاساس : هو حامي الذمار اذا حمى مالو لم يحمه ليم وهنف من حماه وحريمه كقولهم حامي الحقيقة .

(٥) أبو العلاء .

(٦) ذكر الشيخ طارقاً هذا في لزومية اخرى وفيها التوبيخ الشديد والذم البليغ .

(٧) فلان جليس نفسه اذا كان من أهل العزلة .

(٨) أبو العلاء .

(٩) شاء صاحب هذه الكلمة ان يتلو في الحفلة قسماً منها لأن الوقت لا يتسع لتلاوتها كلها .